بصائر المعرفة القرآنية
قرآن يتلى لإنسانية به ترقى

تفسير القرآن بالقرآن الكريم

من كتاب (الأساس والتنوير في أصول التفسير)

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن والدراسات القرآنية

القسم الثاني

أمهات مآخذ التفسير (أهم مصادر التفسير)

ماذا نعني بقولنا: "مصادر التفسير"؟

المراد بمصادر التفسير: المراجعُ الأصلية الأولية التي يعتمد المفسرون عليها في محاولة التعرف على مراد الله ﷻ، وتعريف الناس به[١]، فهي الينابيع الأولى التي تمدك بالمعنى الذي تريد فهمه في كلمة قرآنية.

لماذا قلنا: (المراجع الأصلية الأولية)؟

لئلا تدخل كتب التفسير؛ لأنها تعد مصادر باعتبارها تضم كلام المفسرين المستنبطين للمعاني التفسيرية من المراجع الأولية، فالكلام ليس عنها؛ فإن كنت تقول: من مصادر التفسير: كتاب الطبري ﷺ نقول لك: ليس كلامنا عن ذلك، وإنما كلامنا عن المصادر التي رجع إليها الطبري ﷺ.

وهذه المصادر سماها ابنُ تيمية (ت٧٢٨هـ): طرقَ التفسير، وأحسنها عنده: القرآنُ، والسنةُ، وأقوالُ الصحابة ﷺ، وأقوالُ التابعين، وعموم لغة العرب[٢].

لماذا سمَّاها الزركشي (ت٧٩٤هـ) (أمهات مآخذ التفسير)؟

لأن (الأم) أصلُ كل شيء ومرجعه، وهي عنده أربعة: النقل عن الرسول ﷺ، والنقل عن الصحابي، والنقل عن اللغة، والتفسير بالمُقتَضى مِنْ مَعْنَى الْكَلَامِ، وَالْمُقْتَضَبِ مِنْ قُوَّةِ الشَّرْعِ، ويعني بهذا الأخير الاجتهاد والتفسير بالرأي الصحيح.

وهذا القسم يمكننا أن نجزئه إلى فصلين كبيرين:

الفصل الأول: المصادر الأصلية للتفسير (أمهات مآخذ التفسير).

الفصل الثاني: مصادر التفسير الثانوية (ما استعمل على أنه من مصادر التفسير).

---

(١) انظر: مصادر التفسير للدكتور/ مساعد الطيار، بحث منشور في شبكة التفسير والدراسات القرآنية.

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦٣).

الفصل الأول: المصادر الأصلية للتفسير (أمهات مآخذ التفسير):

الأساس والتنوير في أصول التفسير

وضعَ ابنُ تيمية ﵀ قاعدةً لكون مرجعٍ ما مصدرًا للتفسير:

قاعدة: «العلم إما نقلٌ مُصَدَّقٌ عن معصوم، وإما قولٌ عليه دليلٌ معلوم، وما سوى ذلك فإما مُزَيَّفٌ مردود، وإما موقوفٌ لا يُعلَم أنه بهرَجٌ، ولا منقود»[(١)]:

والقول عنى به البحث والنظر أي الرأي، كما قال في موضع آخر: "والعلم يحتاج إلى نقل مصدق، ونظر محقق"[(٢)]...

وأنت ترى أن هذه العبارة المحكمة يمكن تعميها لتشمل العلوم المادية فضلاً عن سائر العلوم الشرعية، وصاغ ذلك الشيخ الطالب زيدان —وفقه الله تعالى—:

والعِلْمُ نَقْلٌ صادِقٌ عن مَنْ عُصِمْ أَوْ مَا مِنَ القَوْلِ دَليلُه عُلِمْ

وهل يعني ذلك أن الاجتهاد لا يدخل في النقل المصدق؟

---

(١) مقدمة ابن تيمية (ص: ٤)، وهي في مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٢٩)، والبهرج الزيف والزائف.

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٢٤٦).

الجواب: لا! بل الصحيح أن الاجتهاد جملةً يدخل في مصادر التفسير عمومًا مثل دخوله في بعض الجزئيات كربط آية بآية، فإن الربط اجتهاد على ما هو معلوم إلا أن يأتي الرابط بين الآيتين بنص معصوم، وقد يصيب وقد يخطئ.

ويمكن دمج ما ذكره ابنُ تيميةَ والزركشيُ مع ما قرره علماء التفسير في هذه المصادر لنصل إلى تقرير أن مصادر التفسير خمسةٌ تُفَصَّلُ في الآتي:

المصدر الأول: تفسير القرآن بالقرآن.

المصدر الثاني: تفسير القرآن بالسنة.

المصدر الثالث: تفسير القرآن بما ورد عن الصحابة ﷺ.

المصدر الرابع: تفسير القرآن باللغة العربية.

المصدر الخامس: تفسير القرآن بالاجتهاد المقبول والرأي السائغ.

هذه المصادر الخمسة هي المصادر المستعملة في مناهج المفسرين سواء كانت في التفسير النقلي (المأثور)، أم في التفسير بالرأي (العقلي)...مع بعض اختلاف يسير يُعلم في مناهج المفسرين.

وهنا قد تتساءل: فأين الإجماع؟ والجواب يظهر من القاعدة الآتية:

قاعدة: تُقَيد الأقوالُ التفسيرية جميعُها بقيد عدمِ مناقضةِ الإجماعِ، لا بقيد عدم إحداث قولٍ أفاده الكلام الإلهي:

وصاغ ذلك الشيخ الطالب زيدان –وفقه الله تعالى–

وقَيِّـــدِ القـــولَ بأن لا يَقَعـــا على خـــلافِ مـــا عليْـــهِ أُجْمِعـــا

فآية الكلالة الأخيرة هي قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦] ذكر الله ﷻ الإخوة هنا، وأجمع المفسرون على أن المرادَ بالإخوة فيها: (الأعيان) أي الأشقاء، والإخوة (لعَلَّات) أي لأب، فلا يمكن أن يجتهد مجتهد فيدخل فيهم (الأخياف) وهم الإخوة لأم هاهنا لنقض هذا الإجماع.

ما الفرق بين الإجماع في أصول الفقه وفي علم التفسير؟

الإجماع في التفسير ليس مصدرًا كما في أصول الفقه، ولكنه شرطٌ (ضابط) في التفسير، ولذا ترى الطبريَّ ﷺ يعبر عن ذلك بقوله في مواضع متعددة: "وليس هذا قولاً نستجيز التشاغلَ بالدلالة على فساده، لخروجه عن قول جميع علماء أهل التأويل"[(١)].

وربما تتساءل: قول الطبري ﷺ يناقض القاعدة التي أقررتَها، فظاهره أنه يمنع إحداث قول جديد، فكيف الجواب؟

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٩٤).

بالسبر لتفسيره والمراجعة لتطبيقاته في بيان الآيات ترى أن قوله هذا لا يعني ألا يجتهد المرء وفق الأصول المرْعِية لإظهار صورةٍ داخلة ضمن الآية لم ينبه عليها الأقدمون، كما سيأتي في المصدر الخامس إن شاء الله، إنما عنى ذكر قول يناقض الأقوال السابقة المعتبرة في معنى الآية.

فإن قلت: هلَّا ذكرت مثالًا يوضح ما ذكره الطبري ﵀؟

فلنضرب لذلك مثالاً هو محل تأمل، فقد روى -﵀ تعالى- عن مجاهد بن جبرٍ ﵀ في قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥] قال: لم يُمسخوا، إنما هو مثلٌ ضربه الله ﷻ لهم مِثْل ما ضرب مَثَلَ الحمار يحمل أسفارًا.

ثم عقَّب عليه فقال: "وهذا القول الذي قاله مجاهد ﵀، قولٌ لظاهر ما دلَّ عليه كتابُ الله مخالِف" فانتقد كلام مجاهد، واعتضد بدليل قوي في وجوب حمل الكلام على ظاهره، فقال: "وذلك أن الله أخبر في كتابه أنه جعل منهم القردة والخنازير وعَبُد الطاغوت، كما أخبر عنهم أنهم قالوا لنبيهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، وأن الله -تعالى ذكره- أصعقهم عند مسألتهم ذلك ربهم، وأنهم عبدوا العجل، فجعل توبتهم قتلَ أنفسهم، وأنهم أُمروا بدخول الأرض المقدسة، فقالوا لنبيهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] فابتلاهم بالتيه".

بعد أن ضرب الإمام الهمام الطبري ﵀ هذه الأمثلة من القرآن المجيد، يتساءل باستنكار، فيقول: "فسواء قائلٌ قالَ: هم لم يمسخهم قردة، وقد أخبر جل ذكره أنه جعل منهم قردة وخنازير- وآخر قال: لم يكن شيءٌ مما أخبر الله ﷻ عن بني إسرائيل أنه كان منهم- من الخلاف على أنبيائهم، والنكال والعقوبات التي أحلها الله ﷻ بهم. ومن أنكر شيئًا من ذلك وأقر بآخر منه، سُئِل البرهان على قوله، وعورض -فيما أنكر من ذلك- بما أقر به، ثم يُسأل الفرق من خبر مستفيض أو أثر صحيح"[(١)]، فالطبري ﵀ لا يمانع من أحداث قول في الآية ولو لم يسبق إليه، بشرط أن يكون محتملًا، وله وجه من برهان أو حجة.

فحاصل الطبري ﵀ يشير إلى أن المرء يجب عليه أن يحمل القرآن على ظاهره إلا أن يدل دليل واضح على تأويل قريب، فكأنه يقول لمجاهد ﵀: الله ﷻ يخبر أنه مسخ هؤلاء قردة وأنت تقول: هذا مجرد مثل كما ضرب لهم المثل بالحمار أسفارًا، ومعنى كلامك أن كل كلمة قالها الله ﷻ عن بني إسرائيل يمكن أن نقول هي مجرد مثل، وأنهم لا وجود لهم، ولم يحدث لهم شيء مما ذكر الله ﷻ.. هذا الذي انتهجه مجاهد ﵀ هنا -إن صحت الرواية عنه- مآل خطير في التأويل، وليس مجرد تأويل فاسد بل أسوأ من ذلك، ولكن مجاهدًا ﵀ -إن صح ذلك عنه- ربما لم ينظر إلى مآلات قوله.

ثم هناك فرق بين قوله: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، وبين قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥].

---

(١) تفسير الطبري (٢/١٧٣).

ولم يكتف الطبري ﵀ بردَّ كلام مجاهد ﵀ بذلك بل اعتضد بدليل آخر هو الإجماع على منع هذا القول؛ إذ قال الآخرون بما يناقضه ولا يجتمع عنه في الصورة العامة، فقال: "هذا مع خلاف قول مجاهد ﵀ قولَ جميع الحجة التي لا يجوز عليها الخطأ والكذب فيما نقلته مُجْمِعةً عليه. وكفى دليلاً على فساد قولِ إجماعها على تخطئته"(١).

فرد الطبري ﵀ تفسير مجاهد ﵀ بأمورٍ أهمها: التأويل بلا دليل مقنع، فآل إلى أن يكون تأويلاً فاسدًا، ويوشك هذا التأويل إلى أن يُلزمَ بتأويل كل ما يناظره بلا دليل، وساق على ذلك أمثلة، وكأنه سأل مجاهدًا ﵀: فلم أَوَّلَ هذا الموضع ولم يقم بتأويل بقية المواضع؟ ثم رد هذا التأويل بأنه يناقض الإجماع، ويظهر أنه عنى إجماع الصحابة ﷺ؛ إذ هم الجيل المتقدم على مجاهد ﵀، وقد يُسأل الطبري ﵀: فأين الإجماع؟ وله أن يجيب: بأن النصوص التي ساقها دليل على قول بعضهم بظاهر القرآن دون مخالف فصار إجماعًا سكوتيًا على الأقل، ويُعضِدُه بصورةٍ ظاهرة القاعدة العظيمة التي سيأتي الكلام عنها لاحقًا، وهي: يجب أن يحمل اللفظ على ظاهره إلا بقرينة.

وعندما تنظر في تصرفات الطبري ﵀ في تفسيره ترى أنه اختار أحيانًا أقوالاً لم يقل بها من قبله، ومن أشهر ما وجدت له من ذلك قوله: بأن الأحرف السبعة لم يبق منها إلا حرف واحد، وأن القراءات لا علاقة لها بالأحرف السبعة.

---

(١) تفسير الطبري (١٧٣/٢).

تقرير حبر القرآن لأمهات مآخذ التفسير:

هل ما قرره المتأخرون حول (أمهات مآخذ التفسير أو المصادر الأولية للتفسير) انفردوا به أم قاله من قبلهم؟

الجواب: لم يكن تقرير المتأخرين كابن تيمية والزركشي –رحمهما الله– لأمهات مآخذ التفسير بدعًا من القول، بل سبقهم إلى ذلك السلف رحمهم الله تعالى، وأنموذجهم الأعلى حبر القرآن ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، فكان إِذَا سُئِلَ عَنِ الأَمْرِ –أي في معنى الآيات أو في واقع الحياة– فَكَانَ فِي الْقُرْآنِ أَخْبَرَ بِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْقُرْآنِ، وَكَانَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَخْبَرَ بِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ، فَعَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَالَ فِيهِ بِرَأْيِهِ[1].

ففي هذا التطبيق لابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا رأينا أنه يرجع إلى مصادر التفسير التي ذكرناها.

(١) الدارمي (١ / ٢٦٥) برقم (١٦٨)، وصحح سليم حسين أسد إسناده.

المصدر الأول

(القرآن العظيم) تفسير القرآن بالقرآن

ويندرج تحته أربعة مباحث:

المبحث الأول: سبب جعل تفسير القرآن بالقرآن من أمهات مصادر التفسير.

المبحث الثاني: من صور تفسير القرآن بالقرآن.

المبحث الثالث: مدى حجية تفسير القرآن بالقرآن.

المبحث الرابع: أهم الكتب التي تعرضت لهذا النوع من التفسير.

المبحث الأول: أسباب جعل القرآن مصدرًا من مصادر التفسير.

لعلك تتساءل عند النظر في هذا المصدر عن سبب جعله مصدرًا، فلماذا يفسر القرآن بالقرآن؟

الجواب: لنفهم سببَ جعلنا هذا المصدر مصدرًا للتفسير نضع هذه القاعدة:

قاعدةٌ: القرآن يُصَدِّقُ بعضُه بعضًا، فلا تناقضَ ولا اختلافَ تعارض:

فلا يمكن أن يوجد فيه التناقض في الصورة الكلية، ولا يمكن أن تجد فيه تعارضًا في مجموعه، وبما أنه يصدق بعضه بعضًا، فبعضه شاهدٌ لبعضه، فنلتمس تفسير بعضه في بعضه الآخر.

ما الدليل على هذه القاعدة؟

ويدل على ذلك:

أولاً: قوله تعالى جدُّه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، فوجود التناقض ينفي الصدق، ويبين ذلك مجاهدٌ ﷺ في قوله تعالى ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾(آل عمران: ٧)، فيقول عن المحكمات: "ما فيه من الحلال والحرام، وما سوى ذلك فهو متشابهٌ يصدق بعضُه بعضًا"[(١)]، فجعل المتشابه ما لم يتضح معناه تمام الاتضاح في موضع من القرآن، لكنك تجد معناه في موضع آخر، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، فإذا تساءل أحدهم: ما ذنبهم حتى يختم على قلوبهم؟

يجيبك على ذلك الآيات الأخرى مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة:٢٦]، ومثل قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ومثل قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧].

ثانيًا: قوله تعالى ذكره: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقعَّد الأستاذ محمد عبده ﷺ لبيان ذلك آخذًا أصل الفكرة عن السابقين كابن تيمية وابن كثير –رحمهم الله– فقال: "والأحسن أن يُفهم اللفظ من القرآن نفسه

---

(١) الطبري (٣/ ١٧٣).

بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه وينظر فيه، فربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ الهداية وغيره، ويحقق كيف يتفق معناه مع جملته من الآية، فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه"[١].

ثالثًا: أن القرآن مثاني يصدق بعضها بعضًا، ومما يدلك على ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧]:

إذ من معانيها المعتبرة: مُحَمَّد ﷺ كان على بينة من ربه، وأعظم بينة القرآن، ويتلو محمدٌ ﷺ شاهدٌ من القرآن، فالقرآن شاهد على نفسه بالإعجاز، وروى الطبري ﷺ عن مُحَمَّد بن الحنفية ﷺ قال: قلت لأبي: يا أبت، أنت التالي في ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾؟ قال: لا والله يا بنيّ! وددت أني كنت أنا هو، ولكنه لسانُه، وروى الطبري ﷺ عن ابن زيد ﷺ، قال: رسول الله ﷺ، كان على بينة من ربه، والقرآن يتلوه شاهدٌ أيضًا من الله بأنه رسول الله ﷺ، ونحو هذا الذي قررته ذكره الرازي ﷺ، فقال: "الَّذِي وصَفَهُ اللَّهُ تَعالى بِأَنَّهُ عَلى بَيِّنَةٍ هُمُ المُؤْمِنُونَ، وهم أصْحابُ النَّبِيِّ ﷺ، والمُرادُ بِالبَيِّنَةِ القُرْآنُ، ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أيْ ويَتْلُو الكِتابَ الَّذِي هو الحُجَّةُ، يَعْنِي ويَعْقُبُهُ شاهِدٌ مِنَ اللَّهِ تَعالى، وعَلى هَذا القَوْلِ اخْتَلَفُوا في ذَلِكَ الشّاهِدِ، فَقالَ بَعْضُهم: إنَّهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، وقالَ آخَرُونَ: **بَلْ ذَلِكَ الشّاهِدُ هو كَوْنُ القُرْآنِ واقِعًا عَلى وجْهٍ يَعْرِفُ كُلُّ مَن نَظَرَ فِيهِ أنَّهُ مُعْجِزَةٌ**، وذَلِكَ الوَجْهُ هو اشْتِمالُهُ عَلى الفَصاحَةِ التّامَّةِ والبَلاغَةِ الكامِلَةِ، وكَوْنُهُ بِحَيْثُ لا يَقْدِرُ البَشَرُ عَلى الإتْيانِ بِمِثْلِهِ. وقَوْلُهُ: ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أيْ مِن تِلْكَ البَيِّنَةِ؛ لِأنَّ أحْوالَ القُرْآنِ وصِفاتِهِ مِنَ القِراءاتِ مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ"[٢].

رابعًا: صاحب الكلام أدرى بمعاني كلامه، وأعرفُ به من غيره، وصاحب الكلام هنا هو الله اللطيف الحكيم الخبير، الذي أحاط بكل شيء علمًا، لا يعزب عنه شيء علمًا وخبرة وقدرة، "لهذا كان لابد لمن يتعرض لتفسير كتاب الله تعالى أن ينظر في القرآن أولاً، فيجمع ما تكرر منه في موضع واحد، ويقابل الآيات بعضها ببعض، ليستعين بما جاء مسهبًا على معرفة ما جاء موجزًا، وبما جاء مبينًا على فهم ما جاء مجملاً، وليحمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص، وبهذا يكون قد فسر القرآن بالقرآن، وفهم مراد الله بما جاء عن الله"[٣].

خامسًا: وترى أن النبي ﷺ قرر تفسير القرآن بالقرآن عند التدبر، وجعل ذلك قانونًا كليًّا يحكم فهمنا للقرآن، وهنا نذكر أحد أنفع القواعد التي قعدها النبي ﷺ لفهم القرآن، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لقد جلستُ أنا وأخي مجلسًا ما أحبُّ أن لي به حُمُر النعم. أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخةٌ من أصحاب رسول الله ﷺ على بابٍ من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم، فجلسنا حَجْرَةً –أي: منعزلين في ناحية– إذ ذكروا آيةً من القرآن، فتمارَوا

(١) مناهل العرفان (٢/ ٣٩).

(٢) تفسير الرازي (١٧/٣٣٠).

(٣) التفسير والمفسرون (١/٤٢).

فيها [وهم يختصمون في القدر]، حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مغضبًا حتى احمرَّ وجهُه، [فكأنما تفقأ في وجهه حَبُّ الرُّمان من الغضب] يرميهم بالتراب، ويقول: «مهلاً يا قوم. بهذا أُهلكت الأمم من قبلكم: باختلافهم على أنبيائهم، وضربِهم الكتبَ بعضَها ببعضٍ. إن القرآن لم ينزل يُكَذِّبُ بعضُه بعضًا، إنما نزل يصدق بعضُه بعضًا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمِه» فقال عبد الله بن عمرو: ما غَبَطت نفسي بمجلسٍ تخلفت فيه عن رسول الله ﷺ ما غبَطت نفسي بذلك المجلس وتخلفي[1].

فهذا الحديث ينبئنا بأعظم قانونٍ في عصمة الإنسان من الضلال في فهم القرآن.. هنا تعلم لماذا رمى الرسول ﷺ وهو رؤوف رحيم أصحابَه بالتراب هاهنا.. إنها الرحمة بهم لينتبهوا لخطأ فعلهم، وليلتفتوا إلى القانون الذي سيذكره، والذي اغتبط به راوي الحديث رضي الله عنه، وفي هذه القاعدة يقول فضيلة الشيخ الطالب زيدان – وفقه الله–:

ونـــزِّهِ الـقـــرآن عـــن تـعـــارض ... آياتـــه الحســـنى وعـــن تنـــاقض

بـــل بعضـــه يصـــدق الـــبعض علـــى ... معـــنىً لغـــيرِ الراســـخين أَشْـــكَلاَ

المبحث الثاني: من صور تفسير القرآن بالقرآن

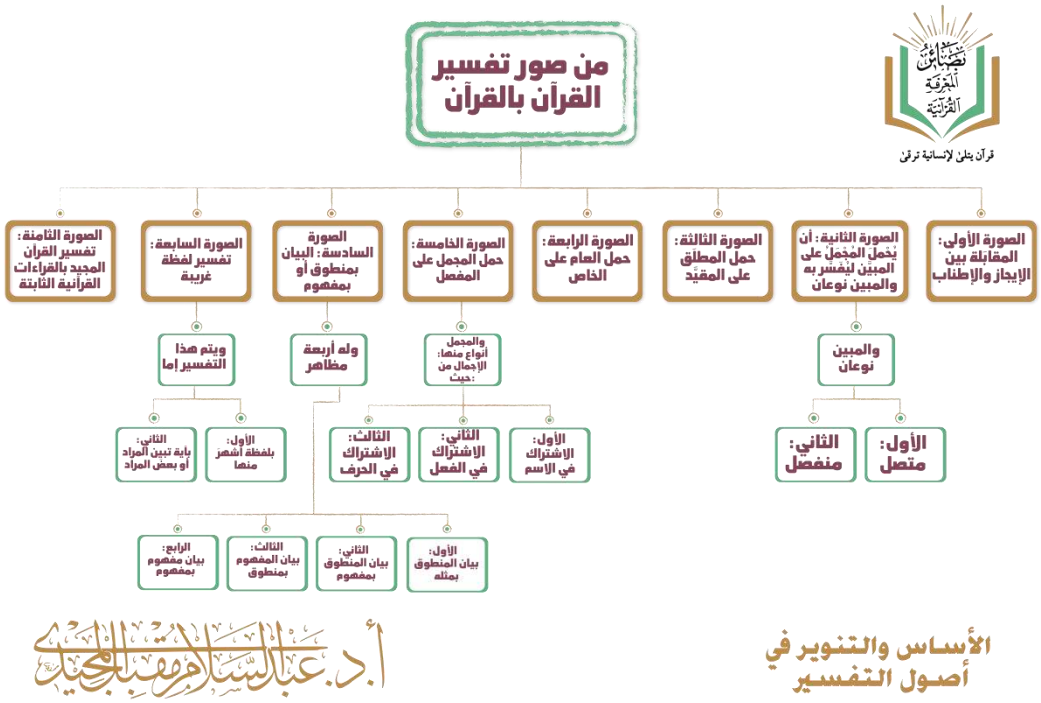

اذكر الصور التي تندرج في تفسير القرآن بالقرآن، مع ذكر أمثلة لكل صورة.

---

(١) أحمد (٦٧٠٢)، ابن ماجه (٨٥)، وصححه المحققان، وما بين القوسين المربعين زيادة من رواية أخرى، وغبط كضرب وسمع.

الصورة الأولى: المقابَلة بين الإيجاز والإطناب:

المثال الأول: قصة آدم عليه السلام وإبليس، فقد جاءت مختصرةً في بعض المواضع، كما في سورة الكهف، وجاءت مُسْهبةً مطولةً في مواضع أخرى، كما في سور البقرة، والأعراف، والحجر، وطه، وص مع فروق ظاهرة بين هذه السور، فإذا جمعتها وجدتها تكمل المشهد الكلي.

المثال الثاني: أن يُذْكَرَ شيءٌ في موضعٍ، ثم يقعَ عنه سؤالٌ وجواب في موضع آخر، مما يزيده وضوحًا وتفصيلاً، كما في قوله تعالى مجده: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، فقد وقع عنه سؤال وجواب في موضع آخَرَ، وذلك قوله تعالى ذكره: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣، ٢٤] وما بعدها.

الصورة الثانية: أن يُحْملَ المُجْمَلُ على المبيَّن ليُفَسَّر به:

والمبيِّنُ نوعان[1]:

الأول: متصل:

أي: يقع البيان في المكان ذاته، كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فلم نفهم معنى الخيطين بصورة واضحة، فبيَّن الله جل جلاله المقصود بالخيطين بقوله: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ﴾ ففهمنا أنه يعني الليل والنهار، وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ﴾ بين وجه المشابهة بقوله: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

الثاني: منفصل:

ومنه بيان العهد المأخوذ على بني إسرائيل المذكور في سورة البقرة في قوله تعالى جده: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠] حيث بينه في سورة المائدة في قوله تعالى ذكره: ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

الصورة الثالثة: حمل المطلَق على المقيَّد:

١) كما في قوله تعالى ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٠]، فإنه قيد إطلاق قبول التوبة بقوله تعالى مجده: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢١٥)، التفسير والمفسرون (٢٧/١)، مناهل العرفان (١١/٢)، قواعد التفسير (١/ ١١٠).

٢) قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ (المائدة: ٥) مقيد بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (البقرة:٢١٧).

٣) ومن أمثلته أيضًا عند بعض العلماء: آية الظهار مع آية القتل، ففي كفارة الظهار يقول الله تعالى في سورة المجادلة آية ٣: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾...وفي كفارة القتل، يقول في سورة النساء آية ٩٢ ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾..فيحمل المطلق في الآية الأولى على المقيد في الآية الثانية، بمجرد ورود اللفظ المقيد من غير حاجة إلى جامع عند هذا البعض من العلماء، وإن كان التحقيق يقتضي عدم الحمل-في نظري- لعدم اتحاد الحكمين، ولأن في ذلك حثًّا على تحرير الرقاب ولو لم تكن مسلمة، وهو مقصد شرعي.

الصورة الرابعة: حمل العام على الخاص:

١) مثل نفي الخُلة والشفاعة على جهة العموم في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقد استثنى الله ﷻ المتقين من نفي الخلة في قوله عزَّ جاره: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، واستثنى ما أُذِن فيه من الشفاعة بقوله تعالى جده: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

٢) وكما في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا﴾ [الإسراء:٢٤] فهذا عموم يشمل كل والد: مسلمًا كان أم كافرًا في الحياة وبعد الممات، وقد خصص الله ﷻ ذلك بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ [التوبة:١١٣]. فخرج بهذا الاستغفار للأبوين الكافرين بعد مماتهما، وظهر أن المراد بها الأبوان المؤمنان، وأما في حياتهما فيجوز الاستغفار، والدعاء بالرحمة لهما.

الصورة الخامسة: بيان ما ورد مجملاً في موضعٍ بما ورد مفصلاً في موضعٍ آخر:

١) ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [البقرة: ٥١]. لم يبين في هذا الموضع هل كانت هذه الليالي مجتمعة أو متفرقة، لكنه تعالى مجده بينها في موضع آخر بقوله: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

٢) وفي قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٤٢] فصَّل الله ﷻ تمنيهم، فأخبر أنهم يتكلمون به في قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ:٤٠].

ما أنواع المجمل؟

والمجمل أنواع منها:

الإجمال من حيث الاشتراك في الاسم: كقوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، فإن كلمة "العتيق" كلمة مشتركة بين ثلاثة معانٍ: القديم، أو المعتق من رِقّ الآخرين، أو العتيق بمعنى الكريم، وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦] أن المراد الأول مع أن المعنيين الآخرين كلاهما حق.

والإجمال من حيث الاشتراك في الفعل: كما في قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير:١٧] مشترك بين إقبال الليل وإدباره، وبين الله ﷻ أن المعنيين مرادان في قوله ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾] المدثر: ٣٣]، وكما في قوله تعالى﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل:١]، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى:٢].

والإجمال من حيث الاشتراك في الحرف: كما في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٧] فإن "الواو في قوله: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ محتملة في الحرفين أن تكون عاطفة على ما قبلها، وأن تكون استئنافية. وبين في قوله ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ﴾ أنه معطوف على قوله ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، وأن قوله ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ استئناف، والجار والمجرور خبر المبتدأ الذي هو ﴿غِشَٰوَةٌ﴾، وسوغ الابتداء بالنكرة أنها أفادت، كما قال ابن مالك رحمه الله[1]:

ولا يجوز الابتدا بالنّكرة ما لم تفد كعند زيدٍ نمرة

وسوغ تقدمَ الخبر على المبتدأ هنا اعتماده على الجار والمجرور قبله كما قال ابن مالك رحمه الله[2]:

ونحو عندي درهم ولي وطر ملتزم فيه تقدم الخبر

فما الذي دلنا على أن القلب والسمع متعاطفان، وأن الواو المرتبطة بالبصر استئنافية؟

دلنا على ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية:٢٣].

الصورة السادسة: البيان بمنطوق أو بمفهوم: وله أربعة مظاهر:

١) **بيان المنطوق بمثله:** كما في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١]، ففسرت آية أخرى "الذي يتلى علينا"، وهي قوله تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ...﴾ الآية ٣ من السورة نفسها.

٢) **بيان المنطوق بمفهوم:** كما في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ...﴾ [المائدة:٣] في المائدة، فمنطوقها يشمل جميع أنواع الدماء، وبين الله ﷻ هذا المنطوق العام بمفهوم قوله في سورة الأنعام: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام:١٤٥] أن غير المسفوح ليس بمحرم، كما قال الطبري رحمه الله: "وأما الدم فإنه الدم المسفوح دون ما كان منه غير مسفوح؛ لأن الله جل ثناؤه قال:

---

(١) ألفية ابن مالك (ص: ١٧).

(٢) ألفية ابن مالك (ص: ١٨).

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ [الأنعام:١٤٥]، فأما ما كان قد صار في معنى اللحم كالكبد والطحال، وما كان في اللحم غير منسفح فإن ذلك غير حرام لإجماع الجميع على ذلك"[(١)].

٣) **بيان المفهوم بمنطوق**: كما في قوله تعالى:﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة:٢] مفهومه أنه ليس بهدى لغيرهم، لكن الله ﷻ أخبرنا في مواضع أخرى أنه: هدى لغير المتقين من المؤمنين، وليس بهدى لغير المؤمنين في قوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

٤) **بيان مفهوم بمفهوم**: فقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة: ٥]، فالمقصود بالمحصنات الحرائر العفيفات، ودل هذا المنطوق على مفهوم هو تحريم الأمة الكتابية في النكاح، ويؤكد ذلك مفهوم قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النساء: ٢٥].

الصورة السابعة: تفسير لفظة غريبة: ويتم هذا التفسير إما:

١) **بلفظة أشهرَ منها**: كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]، فسر كلمة (سجيل) بالطين في قوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات:٣٣]، هذا ما ذكره بعض المفسرين[(٢)]، ويظهر لي أن السجيل يختلف شيئًا ما عن الطين، فالأصل تقارب المعنيين لا ترادفهما بالضرورة.

٢) **وإما بآية تبين المراد أو بعضَ المراد: فقوله**: ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء:٣٠] فالفتق فصل، والكلام هنا عن السماوات والأرض، وذكر بعض المفسرين أن هذا الفتق جاء بيانه في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَ ٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ [الطارق ١١-١٢] [(٣)]، فرجوع المطر إلى الأرض من السماء كأنه تشقق حدث في سحبها، ترتب عليه نزول الماء، وتصدع الأرض للنبات كأنه فصل، فهذا الفصل المذكور في سورة الأنبياء بينته هاتان الآيتان في سورة الطارق، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس ٢٦].

هكذا ذكر بعض المفسرين، والظاهر عندي أن بين الآيات فرقًا في المعنى؛ **فالأصل عدم الترادف**، ويجد المتدبر تميزًا لاستخدام كلمة مكان كلمة حيث تُظهر لنا الفروق البيانية الصحيحة صورًا متعددة لمعاني الآيات...فالمراد من البيان هنا البيان العام وليس البيان الدقيق.

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ٤٠٦).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١١٩/١٧).

(٣) ينظر: تفسير الثعلبي (٢٧٤/٦).

والأنواع والصور الداخلة في هذا الباب كثيرة، وقد ساقها الشنقيطي -رحمه الله تعالى- في مقدمة أضواء البيان بإسهابٍ.

الصورة الثامنة: تفسير القرآن المجيد بالقراءات القرآنية الثابتة:

قاعدة: القراءات الثابتة المتغايرة توضح إحداها الأخرى في المعنى، أو تؤسس معنى جديدًا، فهي تقوم مقام الكلمات أو الآيات المتعددة:

وذلك من إعجاز القرآن، فمن واجبات المفسر كما يقرر الطاهر بن عاشور رحمه الله: "أن يبين اختلاف القراءات المتواترة؛ لأن في اختلافها توفيرًا لمعاني الآية غالبًا، فيقوم تعدد القراءات مقام تعدد كلمات القرآن"[(١)]، **وقرر الشنقيطي رحمه الله ذلك فقال:** "اعلم أولاً أن القراءتين إذا ظهر تعارضهما في آية واحدة لهما حكم الآيتين، كما هو معروف عند العلماء"[(٢)]، فذلك ضربٌ من ضروب البلاغة، يبتدئ من جمال هذا الإيجاز، وينتهي إلى كمال الإعجاز[(٣)]، والآيات المتعددة في الموضوع الواحد تُوَضِّحُ إحداها الأخرى في المعنى، أو تؤسس معنى جديدًا، وكذلك القراءات غيرُ اللهجية.

اذكر مثالًا يوضح هذه القاعدة؟

ومن أمثلة ذلك:

المثال الأول: قوله تعالى ذكره: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٢]، ففي الآية قراءتان مشهورتان[(٤)] توضحان اللبس الحاصل بادئ الرأي من هذا السؤال؛ إذ قد يسأل سائل فيقول:

هل يمكن أن يَشُكَّ الحواريون في قدرة الله حيث أومأ إلى ذلك تعبيرهم: هل يستطيع ربك؟

القراءة الأولى: قراءة الجمهور، كما هو مكتوب: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾.

القراءة الثانية: قراءة الكسائي رحمه الله: ﴿هل تستطيعُ ربَّك﴾ بالتاء في: (تستطيع) مع إدغام اللام قبلها فيها، ونصب كلمة: (ربك)، وتؤسس القراءتان لمشهدين في محاورة الحواريين لعيسى-عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام-:

المشهد الأول: بينت قراءة الكسائي رحمه الله أن المرادَ من سؤالهم: ﴿هل تستطيعُ ربَّك﴾: هل تستطيع أن تسأل ربك؟ فـ(أن) والفعل المضارع محذوفان، ويؤولان بمصدر، ويكون التقدير: هل تستطيعُ سؤالَ ربِك؟ فحذف المضاف الذي هو المفعول به، وأقام المضافَ إليه مقامه، فماذا يكون معنى الاستطاعة؟

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٠).

(٢) أضواء البيان (٢/ ٨٠).

(٣) النشر (١/٥٢)، محاسن التأويل (١/١٩٥)، مناهل العرفان (١/١٠٧).

(٤) النشر (٢/٢٥٦).

الاستطاعة هنا يراد بها الإمكان، والمعنى العام: هل يمكنك فعلُ ذلك دون حرجٍ؛ إذ قد يتحرج النبي من أن يسأل ربه شيئًا كما تحرج نبينا مُحَمَّد ﷺ من تكرار سؤال ربه أن يخفف الصلاة بعد أن وصل إلى خمس صلوات، وقد يتحرج لأن المسألة دنيوية، ولذا لم يكن الأنبياء صلى الله عليهم وسلم يسألون الله ما يتعلق بأمور الدنيا إلا عند الحاجة الماسة أو عند إظهار التضرع الموحد المستعين بالله كما في قصة يعقوب وأيوب وقصص النبي ﷺ عندما طلب أصحابه الطعام أو الماء، أو النصر، فيصبح المعنى الكلي لقراءة الكسائي رحمه الله: هل تستطيع أن تسأل ربك أن ينزل علينا مائدة دون أن تتحرج من الناحية الشرعية؟.

المشهد الثاني: تُظهِرُه قراءةُ الجُمهور، وتُظْهِرُ فيه مشهدًا لاحقًا للمشهد الذي صورته قراءة الكسائي، فالتقدير: وإذا أمكنك أن تسأل ربك دون حرجٍ فهل يأذنُ الله تعالى ذكره في ذلك؟ فليس المرادُ من كلامهم الشكَّ في قدرة الله ﷻ، بل طلبُ الإذن من الله ﷻ أن يصنع لهم ذلك، فيكون المعنى من القراءتين جميعًا: هل تستطيع أن تسأل ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ وإذا سألت ربك، فهل يأذن ربُّك بفعل ذلك؟، وقد رأيت أن معنى كلمة (تستطيع) اختلف في القراءاتين اختلافًا عائدًا للازم الاستطاعة، وليس لأصل الاستطاعة، فهم لا يشكون في قدرة الله، بل إن السياق يوضح: هل السؤال للتحدي والإعجاز، أم للأدب والتذلل، وقد وضح أنه للأدب والتذلل، وإن كان فحوى الطلب طلب معجزة.

وهنا يلوح لك: لماذا جاء التعبير بالاستطاعة دون التعبير بالقدرة أو الإذن؟ فإن الاستطاعة في العرف اللغوي تشمل المعنيين السابقين في القراءتين.

المثال الثاني: (مَلِكِ، ومَالكِ) قراءتان ثابتتان في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] [(١)]، وهما تتآزران على توضيح الصورة العامة المعظِّمة لله -تعالى مجده- في كونه ملكًا ومالكًا ليوم الدين، ويراجع كتابي في تفسير سورة الفاتحة (الإسلام في سبع آيات) حيث فصلت العلاقة بين القراءتين.

المثال الثالث: قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥] برفع المجيد قراءة الجمهور وصفًا لله تعالى، وبخفضه قراءة حمزة والكسائي وخلف العاشر[(٢)] وصفًا للعرش، وكما في قراءتي ﴿يَكۡذِبُونَ﴾ [البقرة:١٠] في أول البقرة، و﴿كُذِبُواْ﴾ [يوسف:١١٠] في أواخر سورة يوسف عليه السلام، وكما في قراءتي: ﴿يَطۡهُرۡنَۖ﴾ (البقرة:٢٢٢)، بالتخفيف والتثقيل، وفي قراءتي ﴿حامية، حَمِئَةٖ﴾ [الكهف:٨٦]. وكل ذلك من القراءات المتواترة.

وفي بيان هذه القاعدة يقول الشيخ الطالب زيدان -وفقه الله-:

تَعَـــــدُّدُ القـــــراءةِ المـــــعْتَبَره يَكُـــــونُ للتوْضيـــــحِ والمـغـايَـــرَه

(١) قرأ عاصم، والكسائي، ويعقوب، وخلف بالألف مدًّا، وقرأ الباقون بغير ألف قصرًا. النشر (٢٧١/١).

(٢) ينظر: النشر (٣٩٩/٢).

فهْـــوَ إذًا مُؤَسِّـــسٌ لِمَعْـــنَى آخَـــرَ أوْ موضِـــحُ نَفْـــسِ المعْـــنَى

القراءات غير المتواترة:

ما الفائدة التي يمكن أن نجتنيها من القراءات غير المتواترة؟

يذكر بعض علمائنا رحمهم الله تعالى هنا عددًا آخر من القراءات غير المتواترة مثل قراءة ابن مسعود ﷺ: (أو يكون لك بيت من ذهب)، فذكروا أنها تفسر لفظ الزخرف في القراءة المشهورة: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ [الإسراء:٩٣]، ومثل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:٩]، يقولون فيها: فسرتها القراءة الأخرى: (فامضوا إلى ذكر الله)، لأن المراد بالسعي مجرد الذهاب[١]، ولكنني لا أرى ذلك، بل أرى الآتي:

أولاً: القراءة غير المتواترة لا تفسر المتواترة بل تنبئ عن تفسير ورد عمن رويت عنه إن ثبت ذلك عنه، وحكم هذا التفسير هو حكمه عندما نرجعه إلى المصادر الخمسة.

ثانيًا: ليس ما ذكروه من التفسير صحيحًا، فيمكن أن يوجه التعبير عن الذهاب إلى الجمعة بالسعي في القراءات المتواترة توجيهًا سديدًا، ويكون المعنى: أسرعوا أيها الناس في الإقلاع عن تجارتكم وأشغالكم كأنكم تسعون إلى الجمعة سعيًا.

فالتمثيل بما ذكروه من قراءات شاذة إنما يكون من باب التفسير ما دام غير متواتر، ومن ذلك القراءة المنسوبة لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] زاد ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (في مواسم الحج)، فالزيادة هنا تفسير لا قراءة، وقد يتوهم السامع أن الزيادة قراءة وعند تأمل ترى الزيادة تفسيرًا أدرجه المفسر، فتوهمه بعض السامعين أنه قراءة.

قاعدة: القراءة الشاذة حال صحة سندها تنزل منزلة خبر الآحاد، وتعد مفسرة للقرآن:

كما في الأمثلة السابقة، وكما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل: ٣] ففي قراءة عُزيت لأبي الدرداء وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (والذكر والأنثى)[٢]، وهذا المثال أولى في نظري من التمثيل بأيام متتابعات ونحوه لثبوت سنده فهو في صحيح البخاري، وفي هذا النوع يقول أبو عبيد رحمه الله في كتاب (فضائل القرآن): "فأما ما جاء من هذه الحروف التي لم يؤخذ علمها إلا بالإسناد والروايات التي يعرفها الخاصة من العلماء دون عوام الناس، فإنما أراد أهل العلم منها أن يستشهدوا بها على تأويل ما بين اللوحين، وتكون دلائل على معرفة معانيه وعلم وجوهه، وذلك كقراءة حفصة وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ (صلاة العصر) [البقرة: ٢٣٨]– وعدد من هذه الأمثلة إلى أن قال– فهذه الحروف وأشباه لها كثيرة قد صارت مفسرة للقرآن... وأدنى ما يستنبط من علم هذه الحروف معرفة صحة التأويل على أنها من العلم الذي لا تعرف

(١) انظر مثلاً: التفسير والمفسرون (١/ ٤٥).

(٢) البخاري (٤٩٤٤).

العامة فضله"[١]، فالقراءة الشاذة تعامل معاملة التفسير ولا تعامل معاملة القراءات ولا معاملة الحديث إلا أن تكون القراءة التفسيرية ثابتة عن النبي ﷺ فتعامل معاملة الحديث أي هي تفسير نبوي[٢]، وهذا ما ذهب إليه الشافعي رحمه الله فهو "لا يرى الاستدلال بالقراءة الشاذة لا من حيث إنها كتاب ولا من حيث إنها خبر"[٣]، وقرر الرازي رحمه الله أن القراءة الشاذة لا يمكن اعتبارها في القرآن؛ لأن تصحيحها يقدح في كون القرآن متواترًا[٤].

قاعدة الاستشهاد بالقراءة الشاذة: لا يستشهد بالقراءة الشاذة على أنها قرآن، وإنما هي تفسير لها حكم التفسير؛ فإن صحت عن النبي ﷺ فهي تفسير نبوي، وإن صحت عن غيره نسبت إلى غيره.

قرر الشنقيطي رحمه الله عدم صحة بيان القرآن بقراءة شاذة، ولكن قد تذكر القراءة الشاذة استئناسًا لتأييد معنى قراءة عشرية متواترة، كقوله: ﴿وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النور: ٣٣]، ففي قراءة شاذة بزيادة لفظة لهن بعد كلمة غفور، فالموعود بالمغفرة والرحمة، هو المعذور بالإكراه دون المُكرِه؛ لأنه غير معذور في فعله القبيح، وبين الله ﷻ ذلك بقوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦][٥].

المبحث الثالث: مدى حجية تفسير القرآن بالقرآن

هل تفسير القرآن بالقرآن حجة مطلقًا؟

تفسير القرآن بالقرآن لا يخلو من أربع حالات:

الحالة الأولى: أن يكون طريقُهُ النقل عن النبي ﷺ، فهو حجةٌ مطلقًا في فهم الآية ما دامت الرواية مقبولةً وفق قوانين علم الحديث[٦]، مثل تفسير الظلم الوارد في سورة الأنعام.

الحالة الثانية: أن يكون الاستدلال صريحًا واضحًا لا يحتمل اللبس في أنه تفسير لكلمة قرآنية ببيان قرآني آخر، فهو حجةٌ بينة بغض النظر عن قائله، كتفسير كلمة: (العالمين) الواردة في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ...﴾ [الشعراء ٢٣-٢٨]، فحال الاستدلال هنا كحال المبين المتصل في مثل أول سورة الطارق.

الحالة الثالثة: أن يكون طريقه النقل عن غير النبي ﷺ من الصحابة رضي الله عنهم، كتفسير عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ [التكوير: ٧] حيث قال: (يُزَوَّجُ نَظِيرَهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ) -عنى بذلك يقرن به- ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ١٤٩).

(٢) وانظر: فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ١٤٩).

(٣) تفسير الآلوسي (١٣٩/٥).

(٤) تفسير الرازي (٢ /٤٥٩).

(٥) تفسير الرازي (٢ /٤٥٩).

(٦) وهل يمنع إدخال فهمٍ آخر في التفسير: مسألة يأتي تفصيلها في التفسير بالسنة.

[الصافات:٢٢][1]، فالكلام في قوله ﴿زُوِّجَتْ﴾ عن قرن النظير بنظيره، وليس عن الزواج بمعنى النكاح.

ما حكم التفسير في هذه الحالة؟

في هذه الحالة تطبق على الرواية الموقوفة المعايير الحديثية للتأكد من ثبوت الرواية حتى لا نتحرج في نسبتها إلى الصحابي، ثم تطبق القواعد المتعلقة بحجية أقوالهم من حيث المتن، فمنها ما له حكم الرفع، ومنها ما هو رأيٌ واجتهادٌ، فليس بحجةٍ قاطعة، بل تُرَجَّحُ حجيتُه إذا كان صادرًا عن مفسرٍ امتلك مؤهلاتٍ لم يمتلْكها غيره، كابن عباس، أو كعمر بن الخطاب، أو كعلي بن أبي طالب ﷺ، وأن يظهر من استدلاله بالقرآن وضوحُ التوجيه لما ذهب إليه، وفيه تفصيل يأتي في مصدره -إن شاء الله تعالى-، فتفسير القرآن بالقرآن في هذه الحالة ليس بحجة قاطعة بالضرورة.

الحالة الرابعة: أن يكون طريقه النقل عن غير الصحابة ﷺ من التابعين فمن بعدهم، فيقول أحدهم مثلاً: بين الله ﷻ -تعالى ذكره- هذه الآيةَ في قوله...، ويذكر الموضعين: المستدَلَّ له، والمستدَلَّ به.

وفي هذه الحالة:

يكونَ محلَّ نظر، فهو لا يزيد على أن يكون اجتهادًا من صاحبه، فتنزل عليه ضوابط الاجتهاد، كتفسير كلمة السفهاء الواردة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: ٥] بما ورد في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ [البقرة: ١٤٢]؛ إذ قد يقول قائل: آية البقرة تفسر آيةَ النساء، وقد يعارضه آخر بأن آية البقرة كلام في السفه العقلي عند الاعتراض على الحكم الشرعي، أما آية النساء فكلام عن السفه العقلي عند التصرف المالي، فكلمة ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ مشتركة في الموضعين، ولكن المدلول لكل موضع يختلف عن الآخر، فلا يعد تفسيرًا للقرآن بالقرآن، ولا ينبغي أن يفرح عندما يقال: تفسير هذا الموضع وجدناه في الموضع الآخر لمجرد الاشتراك في وورد الكلمة.

لماذا لم يعدَّ الزركشي ﷺ (تفسير القرآن بالقرآن) من أمهات مآخذ التفسير؟

لم يدرج الإمام الزركشي -ﷺ تعالى- هذا المصدر ضمن أمهات مآخذ التفسير؛ وربما يعود ذلك لهذا الاحتمال الذي قررته قبل قليل، فحقيقة تفسير القرآن بالقرآن يعود إلى أحد المصادر التالية له، وذهب د/الطيار إلى أن المفسرين تسامحوا في إدراج كثير من الأمثلة السابقة تحت هذا البند: تفسير القرآن بالقرآن، مع أن الحقيقة أن أكثر ذلك هو من اجتهاد العقل الذي جمع بين

---

(١) البخاري (٦ / ٢٠٧) معلقًا، ووصله ابن حجر في (تغليق التعليق ٣٦١/٤)، وفي رواية لابن جرير(٦٩/٣٠)، والحاكم (٢ / ٥٦٠)، وصححه ووافقه الذهبي: (هما الرجلان يعملان العمل يدخلان به الجنة والنار: الفاجر مع الفاجر، والصالح مع الصالح).

الآيتين أو الآيات وليس هو تطبيقًا دقيقًا لمصطلح تفسير القرآن بالقرآن؛ إذ ذلك يقتضي وجود الكلمة ذاتها وبيانها في الآية المبينة كما في مثال تفسير الظلم[١].

وعند التأمل فإننا إذا أخذنا بهذا الاعتبار سنلغي حتى المثال المذكور؛ لأننا نحتاج معه إلى النص بأن الظلم المقصود في سورة الأنعام هو الذي ذكر في سورة لقمان، وأين هذا النص في القرآن لولا أن النبي ﷺ هو الذي نص على ذلك، وكلامه وحي يوحى، وإلا لقلنا حتى هذا المثال استنباط أيضًا؛ لأن للظلم معاني كثيرةً وردت في القرآن الكريم، فإن حددنا أحدها ليفسر موضعًا نكون قد أعملنا العقل والاستنباط إلا أن يكون الذي نص على التحديد هو الحبيب المصطفى ﷺ...وعلى هذا فالاستدراك المذكور محل نظر.

المبحث الرابع: أهم الكتب التي تعرضت لهذا النوع من التفسير

كتب التفسير التي اعتنت بهذا المصدر: كثيرة منها:

١) ابن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) رحمه الله في كتابه: (جامع البيان عن تأويل آي القرآن): فمن البداية يقول في تفسير: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] " لله الملك يوم الدين خالصًا دون جميع خلقه الذين كانوا قبل ذلك في الدنيا ملوكًا جبابرة، ينازعونه الملك، ويدافعونه الانفراد بالكبرياء والعظمة والسلطان والجبرية، فأيقنوا بلقاء الله يوم الدين أنهم الصَغَرة الأذلة وأن له من دونهم ودون غيرهم الملك والكبرياء والعزة والبهاء ،كما قال جل ذكره وتقدست أسماؤه في تنزيله: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]"[٢].

٢) الحافظ ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) رحمه الله في كتابه (تفسير القرآن العظيم)، وهو من أوسع كتب التفسير احتفاء بهذا المصدر.

٣) احتفى به مُحَمَّد بن إبراهيم الوزير (ت٨٤٠هـ) رحمه الله، لكنه لم يؤلف فيه كتابًا مستقلاً فقد قال: (تفسير القرآن بالقرآن)، وذلك حيث يتكرر في كتاب الله تعالى ذكر الشيء، ويكون بعض الآيات أكثر بيانًا وتفصيلا"[٣]، وقد أشار إليه في كتبه المختلفة كالعواصم، وإيثار الحق.

٤) إبراهيم بن مُحَمَّد بن إسماعيل الأمير (ت ١٢١٣هـ) رحمه الله: (مفاتيح الرضوان في تفسير القرآن بالقرآن)[٤]، ولعل الدكتور المحقق مساعد الطيار وهم فعزاه إلى أبيه الأمير الصنعاني (ت: ١١٨٢هـ) رحمه الله بتسمية مقاربة.

٥) الشيخ مُحَمَّد الأمين الشنقيطي (ت١٣٩٣هـ) رحمه الله في كتابه: (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن).

---

(١) انظر: مساعد الطيار: مصادر التفسير، مقال منشور في شبكة التفسير والدراسات القرآنية.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/٩٤).

(٣) انظر: إيثار الحق على الخلق (ص:١٥٠).

(٤) انظر: هجر العلم ومعاقله في اليمن (٤/ ١٨٥٨)، هداية العارفين (ص: ٢١).

٦) تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان للإمام عبد الحميد الفراهي (ت١٣٤٩ هـ) ﵀، ولكنه لم يكتمل.

وعند التأمل فإننا قد نستطيع تعميم معظم التفاسير تحت هذا البند؛ إذ لا يخلو منها من يستشهد على معنى للفظة بآية أخرى.

أسئلة تقويمية:

س١: ماذا يقصد بـ "مصادر التفسير"؟

س٢: لماذا سميت هذه المصادر بالأولية؟ وماذا أطلق عليها ابن تيمية ﵀؟

س٣: لماذا سمَّاها الزركشي ﵀ (أمهات مآخذ التفسير)؟

س٤: ما أهم مصادر التفسير؟

س٥: هل ما قرره المتأخرون حول (أمهات مآخذ التفسير) شيء انفردوا به أم قاله من قبلهم؟

س٦: ما الدليل على أن القرآن يصدق بعضه بعضًا؟

س٧: ما سبب جعل القرآن مصدرًا من مصادر التفسير؟

س٨: اذكر الصور التي تندرج في تفسير القرآن بالقرآن، مع ذكر مثال لكل صورة.

س٩: اذكر مظاهر البيان بمنطوق أو بمفهوم، واذكر مثالًا لكل مظهر.

س١٠: بم تفسر اللفظة الغريبة؟

س١١: وضح بالمثال كيف تقوم القراءات الثابتة مقام الكلمات أو الآيات المتعددة.

س١٢: كيف يمكن الاستفادة من القراءات غير المتواترة في مجال التفسير؟

س١٣: هل تفسير القرآن بالقرآن حجة مطلقًا؟ وضح ذلك؟

س١٤: لماذا لم يعدَّ الزركشي ﵀ (تفسير القرآن بالقرآن) من أمهات مآخذ التفسير؟

س١٥: اذكر أهم الكتب التي اعتنت بتفسير القرآن بالقرآن.